اضطرابـــــات السلـــــوك الجنســـــي في البيئـــــة العربيـــــة

(بانوراما عامة وحالات خاصة)

د. خليـــــل فاضـــــل الطـــــب النفســـــي – القاهـــــرة، مصـــــر

www.drfadel.net - kmfadel@gmail.com

تكاد اضطرابات السلوك الجنسي في البيئة العربية أن تتمحور حول ارتباطها بالمحرمات (التابو)، بالدين (الإسلامي غالباً)، وكذلك بالموروث الشعبي من ناحية أخرى بالجهل الجنسي الشديد، وارتباط الاضطرابات بالغيبيات كالرَبط والشعوذة ، وهذا الذي يجعل لها مذاقها الخاص وخصوصيتها الإكلينيكية، سواء كان ذلك في الشكوى أو الأعراض، وهي لا تخرج عامة عن إطار الإضطرابات الجنسية المعروفة والمُصنّفة عالمياً، نحددها هنا باضطرابات الانتصاب عند الرجل (E.D Erectile Dysfunction)، التشنج المهبلي عند المرأة Vaginismusوكذلك العادة السرية Masturbation لدي الجنسين.

1- اكتئاب ما بعد الجنس غير المرغوب

تتشابك تلك الإضطرابات مع أمور أخري مثل (العجز العضوي الجنسي لدى الرجل Organic Impotence)، الوسواس القهري الذي يحدث في شكل إفراط إدماني على العادة السرية (خاصة لدى الذكور)، مفهوم النجاسة والذنب، ارتباط الطاعة الزوجية وغضب الله بضرورة إرضاء الزوج في الفراش، (حتي لو لم تكن لدى الزوجة أي رغبة)، مما يولد إحساساً قاسياً يظهر في صورة (بكاء، عدم استجابة، إحساس عام بالضيق)، عادة ما يصطلح عليه (باكتئاب ما بعد الجنس غير المرغوب فيه Post Unwanted Sex dysphoria).

وفي بعض النساء يظهر في صورة تزييف مشاعر المتعة والسعادة، وبالوصول إلى الرعشة الجنسية Orgasm ، بمعنى التصنع رغبة في إرضاء الزوج وإيهامه بأن كل شيئ على ما يرام، أو لدفعه لكي ينهي العملية الجنسية بسرعة (يخلص)؛ فيريح ويستريح، وهو ما عبرت عنه نساء عدة في الصياح قائلات (ياليلة عدّى)، بدلاً من أن يكون هذا اللقاء لمتعة الطرفين، يصبح متعة لأحدهما (غالباً الرجل فقط)، وعذاباً للطرف الآخر (غالباً المرأة فقط).

وليس اكتئاب ما بعد الجنس غير المرغوب فيه مقصوراً على المرأة، اعتقاداً بأن الرجل هو الذي يملك العضو التناسلي، ويملك مفتاح انتصابه من ارتخائه، بصرف النظر عن أن ذلك أو ذاك يتم شعورياً أو لا شعورياً؛ فإن كافة الأمور بيد الرجل، لكن يبدو أن الأمر على العكس، حيث أن كثيراً من الرجال قد أصبحوا (يؤدون)، كالمؤدي الفاشل في فرح متدني، أو كالمغني لكلمات متقاطعة على عزف نشاز لمستمعين من الصم، وكأنه يحيي حفلاً للطرش.

ولنا في هذا المثال شرحاً إكلينيكياً يجسد أبعاد المشكلة، في إطار فضفضات علاجية لزوج" في منتصف الثلاثينات متزوج منذ حوالي ست سنوات وله من الأولاد إثنان، بينه وبين زوجته مشكلات وقضايا، ومرتين طلاق بكل ما يحمل ذلك من ذكريات مؤلمة، قرر ألاّ ينام معها إلاّ في الضرورة القصوى (لمّا يكون على آخره يعني)، حسب تعبيره، (أي أنها اصبحت مجرد أداة ووعاء لتفريغ شهوته الجنسية مثلها مثل أي امرأة يلقاها في عرض الطريق أو على ناصية الشارع)، لكنها في إحدى ليالي الشتاء الباردة تدفأت به، احتكت بجسده ودَعَته إليها، لم يكن يرغب فيها إطلاقاً، لكنه وكما أكد (فاجأتني، وأنا لست مدرباً ولا مؤهلاً على التعامل مع مثل تلك المواقف، لكن المفاجأة أن ذكري انتصب، وقمت بالعملية الجنسية بنجاح آلي، لم استمتع وفضلت أربع أيام متضايق، مقريف، ومش طايق لا نفسي ولا الدنيا)".

هنا أصيب الرجل، باكتئاب ما بعد الجنس غير المرغوب فيه، أو غير المحبب، وهكذا تخلص من الأزمة بشكل فسيولوجي بحت، اضطره فيه الموقف لعدم رفض امرأته من باب (إنه راجل)، وطالما (طلبته)، فلا بد وأن يقوم بالواجب، كأي ميكانيكي سيارات يتعامل مع سيارة ظمأى للزيت؛ فأتاها وهو ماكينة جنس Sex Machine ،بلا حِس ولا صوت، بلا طعم أو مزاج، قائلاً (يااااه ، ده أنا استغربت نفسي كمان لإني لقيتني باقذف)، ولما شرح له المعالج (المؤلف)، أن المتعة الحقيقة تكون في (الارتواء) لا في (الإشباع)، وأن الفارق بينهما كبير، كما أن السعادة هي التي تأتي بعد (القذف)؛ بمعني الراحة والاسترخاء وانسياب العقل والبدن، تفّهم الرجل وفاجأ معالجه (المؤلف) بتصريح مهم للغاية يجب التوقف عنده (تحليلياً نفسياً ومعرفياً)..." أنا عايش على أمل إني اتجوز تاني، أحقق ذاتي الجنسية مع امرأة يكون بيني وبينها كيمياء وتناغم وانسجام حقيقي، ست ما أقومش معاها بالجنس كأداء واجب، ولا أضطر لعمل ذلك تحت ضغط إحراج الذكورة ومحاولة إثباتها، امرأة تفهمني وأفهمها، أنظر إلى عينيها فأدرك أعماق مسامها الجنسية المفتوحة، أعرف كيف أتعامل مع جسدها بفن، أرويها وترويني أكون صلباً ورقيقاً في آن واحد، وتكون ريانة وامرأة من نار في نفس الوقت)".

كان هذا الرجل مجرد أداة، بالضبط كحالة (المتعالج) الأول، ماكينة، مؤدي، حاول (إسعاد زوجته) بإطالة مدة اللقاء الذي كان بارداً خالياً من الحميمية؛ فأضجرها، لم يحس بها ولم يشعر بأنها جافة من داخلها (نفسياً وتناسلياً)، كانت (فاصلة) عن واقع ذلك الفراش الثلجي، و بانتهاء (القذف) انتهى كل شيئ، كل واحد يروح لحاله، يستحم، ينام، يلعب فيديو جيم، يقزقز لب، أي حاجة.

قالت الست أيضاً في معرض حديثها أن له كثيراً – أن لم يكن دائماً – طقوساً غير محببة، كثيراً ما تكون منفرة،مثل أن ينام معها وهو مرتدياً ملابسه، ثم يخلع سرواله في آخر لحظة، يداعبها فقط في غير السرير

يصمت صمت القبور فجأة، ويستمر صمته ذلك دهراً، يتفادى القبلات والأحضان.

هكذا تبدو المسألة من الطرفين تحصيل حاصل، تبين بعد ذلك أن المرأة كانت تستجيب للأمر الواقع في الماضي، وأنها أيضاً لا تريد الآن التمرد عليه، ولا تريد تنبيهه الى (الضروريات والمشهيات)، لأنها تعتقد يقيناً أنه (لن يتغير)، وصلت الأمور هنا إلى حد النصل وحافة السكين، فقطعت كيمياء المخ العصبية لديها؛ فسلبتها (مفرحات النفوس ومثيرات الرغبة)، سلبتها الإثارة والاستثارة التلقائية، العفوية الانسيابية، أعطتها الجمود والتحجر، التوتر والبلادة ، وبالتالي جفت ينابيعها؛ فدفنت رغبتها ومنعتها من تحقيق أي ارتواء، ولا حتى الرغبة في اللقاء (من أساسه ومن أصله).

كانت تلك المرأة تخفي عرضاً هاماً جداً ألا وهو (التقيؤ)، كانت تتقيأ واقعها (تستفرغه)، (تلفظه) وتتخلص منه ثم تغرقه في لجة الصرف الصحي مع باقي الفضلات.

نعود تعميماً إلى حالة مستشرية لبعض الرجال العرب، نتيجة للظروف الراهنة، ثورة الاتصالات، الانشغال الشديد، الولع بالفضائيات والانترنت، بدأ الرجال يستبدلون زوجاتهم بخيالات وصور حقيقية، كما أن كثرة ساعات العمل بما يتضمنه من مجاورة ومصادقة وحميمية، قد يتطور إلى أشكال مختلفة، هذا بجانب الإرهاق النفسي والبدني، عمليات الهدر والإذلال اليومية، التي تؤدي إلى استنزاف الطاقة النفسية الجنسية وتبديدها، يلجأ الكثير من الشباب والرجال العرب إلى استخدام المنشطات الجنسية بكافة أنواعها وصورها، الصيني والسوري والهندي وغيره من الصيدلي ومن عند العطار، لكن أحياناً، إن لم يكن كثيراً تلك المنشطات لا تعمل كما قال أحد الرجال ذوي التاريخ الجنسي السابق المشرف مع طليقته التي خلعته لكُرهها له، لبخله وسلوكياته الغريبة "(يا دكتور ... الفياجرا دي لا تعمل إذا كان الفيوز (Fuse) الخاص بالرغبة والشهوة واللهفة الجنسية غير موجود في قلب الدماغ". وهي تلك الشكوى شبه العامة التي يحملها رجال في سن الشباب وفي مقتبل العمر، كما هؤلاء في منتصف العمر اللاذين يترددون على عيادات الذكورة، والعيادات النفسية الجنسية، بحثاً عن الحلّ الذي لن يكون في الحبة الزرقاء (الفياجرا)، أو عين الكتكوت (الاسم الرمزي لأقراص الأنافرانيل Anafranil المستخدمة في علاج الوسواس القهري والاكتئاب)، تلك الحبة تطيل العملية الجنسية وتعطل سرعة القذف لكن لا تعالجه، وحسبما قال أحدهم: "(طيب والفياجرا دي بتشتغل على ضخ الدم في القضيب، افرض بقى إن الواحد معندوش دم يعمل إيه، يجيبوا منين، بكده الفياجرا مش هتشتغل ".

قال زوج آخر، "(إحنا علاقتنا الزوجية الجنسية مش بتحصل بشكل متكرر، ببساطة لأن أنا مش موجود في البيت بشكل كافي، وكمان موجود في الحياة بالصدفة، أهوه عايش وبس". الجنس الصحيح والجيد بين الأزواج يعتمد على الوعي ودرجة التوافق، الأسعار النار، التلوث والازدحام زادوا قوي، الخصوصية معدومة، (كثير من الأزواج يخافون الجنس، والعضو يفقد انتصابه بسبب إن عيل أو إثنين أو حتى ثلاثة، هيدخلوا عليهم الأوضة فجأة ويعملوا فضيحة، وبابا بيضرب ماما، وماما بتعمل أصوات غريبة، وهيبيبيه..، شفنا بابا وماما عريانين، وما إلى ذلك من هرج ومرج ، قد يؤدى في بعض الأحيان، لدى بعض الأولاد الذين شاهدوا اللقاء الجنسي بين والديهم إلى صدمة خفيفة، يختلف أثرها باختلاف بنية الطفل النفسية ودرجة صلابته، لذلك يقولون أن المزلاج (الترباس) هو أهم أداة للجنس الناجح، لأنه يوفر الأمان والحرية والانطلاق داخل غرفة النوم.

ينتج الإشباع الجنسي عن منظومة صحية متكاملة، تضم في إطارها كل أبعاد حياتنا اليومية، وليست محصورة على الإطلاق في المنطقة التناسلية، كما أنها ليست مرتبطة بمهارات ممارسة الحب. ومثلما المرض أو اضطرابات الصحة العامة، يكون (الجنس المعطّل) نتيجة فشل المنظومة الزوجية، عبارة ممكن أن نسمعها همساً أو جهاراً، ربما تضج بها الصدور، وتنزعج لمفرداتها القلوب (العطل الجنسي).

"(يعني يا عم الحاج إزاي يعني تتخيل إني أنام، مُجهد، تَعبان، قَرفان، مِزنوق مادياً، باشتغل ليل ونهار، بألف القاهرة الكبرى زي التور ما بيلفالساقية)" ، هكذا قال سواق تاكسي قاهري، بعدئذ تبدأ رحلة السباب للحكومة والبلد والدنيا والناس والظروف، يمسك بجرنال المعارضة أو حتى صحيفة قومية ويتغم، لو كان عنده رغبة 10% ، أو حتى شهوة أو نظرة عابرة تحمل إشارة أو أمنية، تموت مع أول خبر عن حال البلد وكوارثها، وعلى الرغم من إنه على قد حاله، لكنه أيضاً كان عنده تلفزيون أنيق ألوان بخصائص كثيرة بالقسط وبالريموت، كان يستخدم الريموت زي ما يكون ماسك مسدس بيضرب بيه نشرات الأخبار بالنار، بيطخ بقوة وغلّ الكذب والقَشْر والإدعاءات والإعلانات ، وممكن كمان يخللي الحسناوات اللى على كل شكل ولون في الفضائيات المختلفة وقت أطول. عجبه قوى إعلان مصلحة الضرائب، بحلق وحملق، فكر وتدبر، طيب بيحسبوا ضرائب عربية الكشري إزاي؟!..وهل ممكن يدخل تكاليف الفياجرا في مصاريف الحياة؟ في الإقرار الضريبي يعني باعتباره ضرورة معيشية ؟!

أما الست حرمه كعب الغزال، فلقد جلست وحيدة على ترابيزة السفرة. أمامها الأطباق الفارغة إلاّ من بقايا الطعام، تستعد لمبارة غسيل صحون، لم تتحرك من مقعدها، ظلت محدقة في الفراغ، سرحانة، طبق واحد كان نصف مليان هو طبقها، فالمسكينة لم يعد لها نفس لا للأكل ولا للجنس، لا للتلفزيون ولا لحاجة خالص، اشتغلت مليون شغلانة عشان تدعم الأسرة، مشرفة باص لمدرسة لغات، جرسونة في محل أنيق، وغيره.

فجأة تخرج عن صمتها القاسي لتحكم ما بين أولادها الثلاثة، ثلاثة صبيان عجب، شقاوة وموبايلات وبنات وأيضاً احتمال مخدرات، أما الدروس الخصوصية فهى شأن آخر، في نفس الوقت، وهى تدير ذلك الصراع العائلي المرير بين الأبناء، الذي ربما يصل إلى حد القتال، كان زوجها يحكى لها عن مشاكله في العمل، وعن يومه العجيب الغريب، بعدئذ تخيلت الزوجة المهجورة كالمقطورة في قطار الصعيد القشاش، الذي لم يلحق بالقطار الأصلي منتظرا تحميل البضاعة، تخيلت أن زوجها العزيز يسألها عن حالها وصحتها، قالت في صوت منكسر خفيض (شكراً، ألف شكر، دراعي اللى اتملخ، وضهرى اللي انكسر اتحسنوا سِنه ع العلاج، الحمد لله). بدت كالشبح، زوجة للا أحد وأم لمجهولين، التفتت إلى الحائط وكأنها تكلم نفسها، سمعها زوجها ولم يلتفت، كان مشغولاً بقراءة الجريدة ومتابعة قناة اخبارية في آن واحد. سألها في برود: انتي قلتي حاجة يا حبيبتي؟ (طبعاً كان يعلم جيداً أنها قالت حاجة)، كان قد تعلم أنه إذا سألها (انتي بتقولى حاجة!)؛ فمعنى ذلك أنه لن ينصت إلى إجابتها، ردت الزوجة المطحونة (لأ.. لأ أبداً)، كانت الإجابة التي توقعها وتعودتها من الأولاد (مع السلامة يا ماما). أحد الأولاد قالها وصفّق الباب خلفه ومضى ؟! تخشن صوته وبان البلوغ عليه في صورة شارب أخضر وبعض العضلات، مما جعلها تدور وتبحث عن الطفل المفقود فيه في دهشة واستغراب. لحقته عند الباب وهو يخطف السلالم، جِرْي، انت رايح فين ياولد؟ واخد في وشك كده لا قولوا لي ولا عِدولي .. لم تسمع إجابة فلقد مرق كالسهم وأخذ السلالم خطف. لم تلحق سرعته، ولم تتمكن من معرفة أي شيئ، زمان كانت بتقدر توبخه وتؤنبه وتحاسبه، على قلة ذوقه وقلة أدبه وعدم تربيته، وكان – في بعض الأحيان – يعتذر.

جلست على كرسيها مهدودة الحيل، عقدت ذراعيها على صدرها وأسندت رأسها على ساعديها، ثم بدأت في النحيب، بكت، ثم نامت، سحبها النوم وسرقها كمداً وحزناً ..... وفجأة انتفضت مخضوضة مفزوعة على يدين باردتين تعبثان ببلوزتها كل يد تعصر صدراً وصوت يقول (هيه.. إيه رأيك ندخل جوه، العيال كلهم بره؟!)، أحست به قوياً منتصباً، استغربت قليلاً وتساءلت بينها وبين نفسها عن سبب استثارته. ردتّ في حياء مصطنع (بلاش دلوقتي، أنا لازم أنضف السفرة)، كانت تساوم وتتمنع. قال (ما هو ده اللى توقعته، معندناش تلقائية في حياتنا الجنسية، دايماً مقفولة؟ مش مسترخية، مش سايبة نفسك ...) كان الزوج غاضبا بالفعل، محبطاً للغاية، وكان يعرف أنه سيكون تعباناً قوي إذا ذهب الليل وطلع الفجر ولم يقل العصفور صوصو، أما الزوجة فمن ناحيتها فلقد كانت تعلم جيداً أن معنى إنها تسيب نفسها، أن تستجيب لاحتياجاته فقط، عندما (يهيج) ويبقي له مزاج فقط؟ عمر ما احتياجاته دى جاءت كرد فعل واستجابة لها هى؟ فهمته كويس؟ كان يريد أن (يخلّص)، أن ينهى شهوته بأي شكل، داعبته، حضنته، كانت تعلم المسألة لن تستغرق وقتاً طويلاً وفعلاً في دقيقة ونصف كان قد انتهي من كل شيئ، هرول إلى الحمام ليغتسل! هرول مهمهما (كويس العيال ماجوش فجأة دول الثلاثة معاهم مفاتيح!!)، نظرت إلى السفرة التي تحتاج إلى ترويق، لمحت عليها نصل السكين القاطعة لامعاً، ابتسمت لنفسها ولم تدر لم ركزت على السكين بعد ذلك المشهد المأساوي، الذي انتهي باغتسال الزوج وغسيل الأطباق، عاد إليها يجفف وجهه ورأسه وقال (شفتي بقي، ممكن الأمور تخلص بسرعة إزاي، يعني ممكن تسيبي نفسك! شفتي بقي أنا قصدي إيه؟)....

نظر إليها ممشطاً شعره، خرج ذاهباً إلى القهوة يضرب حجر معسل ويلعب دور طاولة. صفق الباب وراءه. نظرت إلى الأرض، إلى (الريموت كونترول)، وتسألت عما إذا كان ذلك الريموت يصلح لتغيير الأزواج كما هو نافع في تغيير القنوات؟!! ضحكت ضحكة الممثل حسن فايق، وتلتها نفس الزغطة المشهورة .

تخيلت كم من الناس يحدث لهم ذلك المشهد، مع بعض الاختلافات حسب الموقع، المكان، الناس... مشهد جنسي واضح، يفضح الفعل الجنسي الزوجي الفاشل، الذي لا يحله عين الكتكوت ولا الحبة الزرقاء. المشهد المقابل في العيادات النفسية أو تلك للذكورة، يشكو الزوج من أن زوجته باردة، جداً، مشغولة على الدوام، لا تصل للرعشة Orgasm، والزوجة بعد تردد تقول أن زوجها عامل زي دكر البط (يدوب يقرب منها ثم يقذف سريعاً)، وأنها بالفعل تحس بحالة (اللاجنس)، ورغم استشارة الكثيرات وسماع البرامج الجريئة، لكن (مفيش فايدة). حاولا تعلم طرق جديدة وأوضاعاً جديدة، شاهدوا أفلاماً تعليمية جنسية، وأخرى بورنو، رش الزوج سبراي يعطل القذف، فعطل الانتصاب، انتظر مفاجأة أو معجزة، لكنها لم تحدث، لم ينتبه أحد إلى أن الحلّ ليس ضخ الدم في عروق القضيب ولا الحوض، ولا في الحبة الزرقاء ولا البمبي، ولا الصفرا، لكن في حلّ اضطراب المنظومة الزوجية كلها، حلّ مشكلة التدفق الإنسانى العاطفي الوجداني الحياتي بين الزوجين، وبين باقي العالم ككل، المشكلة في الدماغ، لابد وأن يكون هناك تدفق إذن فالأمر ليس له دعوة بإنتاج وتصنيع الفياجرا في مصر أو سوريا أو السعودية وتوفرها بثمن رخيص لكن بالبني آدم ؟!!!

أرخص شيئ في بيئتنا العربية .!

2- خفـوت الرغبـة الجنسيـــة/ Hypoactive Sexual Disire

نأتي إلى ما يصطلح عليه علمياً بخفوت الرغبة الجنسـ ـ ـية HSD Hypoactive Sexual Disorder، ذلك الذي يحدث للرجل على الرغم من استثارته في مواقف غير الفراش أو داخل غرفة النوم، فنجده يتهيج في الطريق العام لمرأى مؤخرة امرأة تلبس الجينز الضيق، أو عندما يشاهد أخرى في سيارتها تبدو كنجمات هوليوود في أناقتها، نظارتها السوداء، سيارتها، وعطرها الفواح. أو أن تكون الاستثارة فقط دون أي حافز لرجل يجلس على كرسيه في مكتبة بمفرده أمام الكومبيوتر المحمول Laptop، وهو يعمل مستغرقاً في عمليات حسابية معقدة للغاية. قالت امرأة حديثة الزواج (سنة أو أكثر)، في معرض حديثها لامرأة أخرى متزوجة في نفس السنة: " (تتصوري، إنه مهما لبست لبس مُغري، وتزينّت على سنجة عشرة، وحطيت بارفان ماحصلش، لا يهتم، ولا كإنه هنا، وعندما يراني، لا يحدث له أدنى انتصاب.) "، أشاحت المرأة الأخرى بوجهها وهي تكتم ضحكتها صائحة في همهمة غاضبة: "(الحال من بعضه يا اختي، مش فاهمة رجالة إيه بتوع الأيام دي؟! قال إيه في سن الشباب، منتصف العشرينات، المفروض يكسروا الحجر.. أنا مش فاهمة.. فعلاً مش فاهمة!!)".

هذه هي الحقيقة المرة على مستوى العالم الغربي حيث يعد خفوت الرغبة الجنسية (H S D) أو (Hypoactive Sexual Desire) أكثر الاضطرابات الجنسية شيوعاً ، وفي كثير من الدراسات تصل النسبة إلى أكثر من (25%) من الشباب، لدرجة أنه صار أمرا كالوباء، يغزو البيوت، يمس الرجال، يخيف النساء ويهدد الأسر.

تقول سالي (وهذا ليس اسمها الحقيقي) ... "(وكإن الدنيا قد أعطتني كل شيئ، المال والجمال تزوجت حديثاً وعندي ولد، زوجي رجل أعمال ناجح، وسيم وجذاب، تخطفه عيون البنات هنا وهناك، وتكاد تأكله نظرات النسوة في المجتمعات التي نرتادها، قررنا الذهاب إلى شرم الشيخ لقضاء عطلة في فندق راق جداً، تناولنا العشاء في (رستوران) فاخر مذاق طعامه لا يوصف، لكن ـ وللأسف ـ شاب العلاقة بيننا اضطراب ما ، ضرب في منطقة غاية في الحساسية) ."

استرسلت سالي قائلة"(توقف زوجي الشاب، حبيبي المليئ بالحيوية عن الاهتمام بي، ولم تعد لديه أي رغبة جنسية فيّ، ولم يبد عليه أي مظهر طفيف يَدّل على اهتمامه الجسدي بي، وهكذا تمادى الحال بنا لدرجة ـ أنه ـ ولشهور أصبح لا يلمسني، لدرجة أنه أصبح يخاف أن يمسك بيدي أو يقبلني، ولما واجهته، قال بصراحة ـ أصل الحكاية ممكن تتطور) تتطور!!!، هو احنا سنرتكب إثم أم أنه يخشى اللقاء الحميم ويخافه، أعتقد أنه يخاف الاقتراب منّي، يخاف الحميمية، ومن ثمّ يهرب من الأمر كله!) " ... قالت كل هذا وانهمرت باكية في عيادة التحليل النفسي الجنسي، انخرطت في بكاء عميق، غطت وجهها بيديها... ثم صمتت.

مما لاشك فيه أن هذا موضوع ملئ بالتوتر والخوف والخزي، موضوع خفوت الرغبة الجنسية أو الـ (H S D)، فها هي الزوجة (غالباً) تبذل كل جهدها، تظهر في أبهى حلّة وأحسن صورة، أما الزوج (فغالباً) ولا على باله، هنا لابد وأن ترتبك العلاقة، تنزعج الزوجة طبعاً، وقد تحس أن ثمة عيب فيها (ربما فقدت سحرها وجاذبيتها)، (هنا قد تلجأ إلى جراحات التجميل ، بشكل عشوائي أو الإفراط في استخدام الكريمات والعطور، أو اتباع نظام غذائي مرهق لضبط وزنها، وكأنها في رحلة شاقة من أجل أن تصبح (موديل)، مقارنة نفسها بهيفاء ونانسي ومادونا وجينيفر لوبيز).

من الطبيعي في هذه الحالة أن يراود الزوجة الشك في أن زوجها يرغب غيرها، (رغم أن هذا مستبعد لأنه يبدو مهموماً، وفاقداً للرغبة الجنسية تماماً). بالطبع في حالة فتور الزوجة الجنسية قد لا يظهر الأمر جلياً لأنها (تزيف النشوة) و(تتصنع المتعة).

إذا أُهمل هذا الأمر، فإنه ـ قد يؤدي ـ للأسف ـ إلى تدمير ـ الزواج تماماً ونسف أساسياته (مثال على ذلك لزوجين تزوجا بشكل الصالونات، وكان بينهما إلى حد ما انسجام رغم فارق السن حيث كبر الزوج عن الزوجة ب (12) سنة، لكنه في ليلة الدخلة لم يفكر في تقبيلها، خلع بذلة الفرح، لبس البيجامة، أعطاها ظهره ثم غطّ في نوم عميق، أما هي فلقد كانت بين الدهشة والذهول ، وبعد (11 يوم) استطاع فض بكارتها، لكنه حرص على القذف خارج المهبل، لأنه كان لا يود الحمل، لأنه كان في أعماقه خائفاً من الزواج ومسئولياته أو متوقعاً الفشل، وكما أقرت الزوجة – بعد ذلك- استمرت العلاقة الجنسية بينهما كيفما اتفق كل أسبوعين، ثلاثة، ولمدة ستة أشهر فقط سادتها المشاحنات والمشاجرات وعدم الاحترام المتبادل الأمر الذي انتهى بالطلاق).

لقد أصبح الشرق الآن مختلفا غير عن ذي قبل، أصبح يضج بالمشهيات البصرية ذات المدلول الجنسي الواضح الفاضح والصريح، تطورت نسبة الاعتناء بالمظهر لدى الفتيات ، وأصبح الرجال يرون بنات زي الشريات يتفنن في لفت النظر (جسداً وماكياجاً)، كانوا دائماً يقولون أن الرجال إذا اجتمعوا فلن يكون لهم حديث إلاّ الجنس والسياسة والمال، الآن يدور حديثهم الجنسي عن الخفوت والعجز (وكل واحد يحط همه على الثاني، ومن سمع بلوة غيره تهون عليه بلوته، ولم يعد هناك خجل أو تغطيه، وصار الحديث عن الحبوب الزرقاء وعن سبل التعويض، عادياً كقزقزة اللب وشرب الشاي).. هكذا أصبح الأمر بين شباب اليوم ـ تحديداً ـ بشأن الجنس ومتعته مجرد (تحصيل حاصل)، واجب، ونسمع عن خطوبة فلان وفلان حتى يستطيع الخروج معها حتى لو صاحبهما أخوها الصغير، وممكن ـ أيضاً كتب الكتاب من أجل التصاق جسدي أو جنسي سطحي تفادياً (للحرام) وإضفاء مشروعية على (الخلوة والقبلة) وفي تصريح لشاب كاتب كتابه منذ سنة قال "(بصراحة الظاهر أن أنا اتدبست، كان مفروضاً أتأنى ، هو أنا بس كنت عايز أبوس وأحضن براحتي، لكن حتى أبوها بيبقى مستخبي ثم يظهر فجأة زاعقاً ناهراً إيانا قائلاً ـ أنا مش فاتح بيتي مبوسة"، يصبح الزواج في مثل تلك الحالات (اشتراك) Package ، بيعة على رأسها (الجنس) الذي يشتاق إليه الرجل ـ جداً ـ وهو خاطب أو كاتب كتابه، لكن لما يختلي بزوجته يصبح الأمر واجباً شاقاً فتخفت الرغبة وتموت الأمنية).

انتفض علماء وأطباء النفس والذكورة في العالم باحثين عن الأسباب، ومفتشين عن الحلول! (بشرت البحوث الخاصة في مجال العلاج النفسي الجنسي بنتائج طيبة للغاية، إذا ما التزم الزوجان)، لكن المزعج في الأمر أن كثيراً ممن يعانون من خفوت الرغبة الجنسية، لا يرون أن هناك مشكلة حقاً وربما تزوجوا لإشباع الرغبة الجنسية فقط (دون إدراك أن الزواج حياة كاملة ومشاركة وحميمية في كافة الأمور)، هنا يبدأ الشجار في كل وكافة الأمور، التافهة والعظيمة، يحتدم الصراع على صغائر الأشياء قبل كبائرها، يبدأ الرجل مثلا في رؤية امرأته التي كانت خطيبته (عادية)، مثل أي امرأة، وتراه هي رجلاً مهملاً أشعث الشعر، كسولاً، غير مهتم بمظهره، تكمن تحت السطح هنا أمور وأمور أهمها الخفوت الجنسي، فإذا خفتت الرغبة لدى طرف، تأكلت حواف الطرف الآخر، إذا تمهلنا وفحصنا حاله (ماري) (وهذا ليس اسمها الحقيقي)، في الأربعينات من عمرها، سعيدة في زواجها، فجأة ومنذ ستة أشهر اختفت رغبتها الجنسية تماماً، قالت دون خجل [لا أدرى ما الذي حصل.. صحيت من النوم فجأة، لقيت شهيتي الجنسية مش موجودة، (بَحّ)، زي ما يكون حوّلت الـــ (Switch) الزرار (Off)، لا أنكر أنني وزوجي مازلنا نمارس الجنس مرة كل بضعة أسابيع، لكنه ـ للأسف ـ جنس غير متوهج (زي الطبيخ البايت وأحياناً زي الطبيخ الحمضان). قبل كدة كنت باستمتع بالعلاقة، لكن على ما يبدو أن جزءاً حيوياً منها قد فقد جزءاً من تكويني زي ما يكون شلت الـــ (Fuse)].

بالطبع فإن عموم الناس في حياتهم اليومية لا تعم عليهم شهوة جنسية متأججة دوما لأن هناك مشاكل ومشاغل: الأولاد ودورسهم الخصوصية، انقطاع المياه، التعب والإرهاق بسبب وبدون، الإجهاد العصبي، اللهاث وراء لقمة العيش ليل نهار، حتى نزلات البرد المتكررة والرشح شبه المستمر والحساسية المزعجة، كل هذا وذاك له دور كاف لدفع الرغبة الجنسية بعيداً.. لكن المسألة ليست قائمة إلى هذا الحد، فبضع كلمات رومانسية، أفكار مثيرة، وخيالات ذات طابع مهيج قد تقود إلى استعادة الحياة الجنسية الطبيعية بين الزوجين، المثير للفزع ـ أنه رغم كل شيئ ـ قد لا تعود الرغبة، وكأنها قد ركبت على عربة ومضت في الاتجاه المعاكس؟! ونجد في هؤلاء المصابين بالخفوت (H S D)، لا رغبة ولا مثيرات ولا اهتمام..

يبرز هنا سؤال مهم! متى يكون الجنس قليلاً؟ وما معنى ذلك؟ فإذا اشتكى أحد الطرفين من أنه لا يشبع حاجته من الجنس، فإن ذلك قد يعني أن شهيته الجنسية مفتوحة زيادة، ومن ثم فإن الطرف الآخر غير قادر على إشباعها تماماً. يدلل الخبراء على أنه لا قانون للحد الأدنى للممارسة الجنسية، بمعنى أن المسألة تختلف وتوفق حسب الظروف، شرط ألاّ تطول أو تنعدم!!

في دراسة بريطانية نشرها (جورنال العلاج الجنسي والزواجي) تأكد أن (24%) من الأزواج في العينة المفحوصة ، لم يمارسوا الجنس في الثلاثة أشهر السابقة للدراسة، وفي دراسة أخرى شهيرة بعنوان (الجنس في أمريكا) ، تبين أن ثلث الأزواج مارسوا الجنس ـ فقط ـ بضع مرات سنوياً، ولنا ـ بالطبع ـ أن نحدد أن تلك الدراسات تركز وتؤكد على (الممارسة)، لا على (الرغبة) مما لا يحمل دلالة على أن أحد الزوجين قد يعاني من خفوت الرغبة الجنسية (H-S-D).

ومع ظهور الفياجرا والجيل الذي تلاها، ظن البعض أن المشكلة ستحل بحبة صغيرة، لكن أن المسألة أعقد من ذلك بكثير؛ فحبة الفياجرا مثلاً تضخ بالدم في القضيب لينتصب، لكنها لا تنبه المخ ليمتلئ بالرغبة، أي أنها ليست بذات فائدة إذا كانت المسائل (فوق) في (المخ) في (النفس) مغلقة أو نايمة في العسل.. مما يدل على أن هؤلاء الناس يحتاجون إلى معالجة نفسية جنسية حقيقية تفتش عن الأسرار والكوامن، عن الصراعات والخفايا، تحلّها، توجهها، تنظمها وترشدها ، إذن فليس هناك (علاج شافٍ نهائي) بمعنى (آكل حباية كله يبقى تمام)، يحتاج الأمر إلى شحن البطاريات، شحذ الهمة النفسية، بث العشق بمعناه الوجداني بمعنى أن يسعى كل رجل لاكتشاف جسد امرأته من جديد، وأن تسعى كل امرأة لأن تمارس الحب (لا الجنس) وأن تترك أداء الواجب بعيداً ، تنتبه للكلمة الحلوة العذبة، واللمسة التي تثير الحواس وتؤججها. أي الأمر يحتاج إلى (وجود حياة) لا إلى الكيمياء..فقط!

ينبغي هنا إلى أن ننبه أن كثيراً من العقاقير المضادة للإكتئاب تؤثر سلباً على الرغبة الجنسية خاصة تلك التي تعمل على مادة (السيروتونين) والمعروفة باسم (SSRI'S)، كذلك فإن اضطرابات الغدة النخامية، قد تؤدي إلى خفوت الرغبة الجنسية، كما تؤكد بعض الأبحاث أن انخفاض نسبة الهرمون الذكري (التيستيرون) في النساء تعد سبباً وراء ضعف شهيتهن الجنسية، وفي ختام الأمر نستطيع القول بأن هناك ما يسمى (فقدان الرغبة ـ أساساً)، بمعنى أن هناك خفوت الرغبة الجنسية الذي يعد أكثر الأمور صعوبة، هذه الحالات تعالج بنجاح، لكن مفتاح هذا النجاح يكون ـ غالباً ـ في يد معالج نفسي جنسي متمكن، وتكمن الصعوبة غالباً في إقناع الرجل بأن هناك مشكلة... لا لشيئ إلاّ لأنه لا يرى هذه المشكلة ولا يريد ألا يذكره أحد بها.

نصف العرب يعاني من اضطرابات جنسية... والمعدل المطلوب للممارسة الجنسية الزوجية أربع مرات شهرياً! (هكذا قالوا وقرروا) ...

فجرت نتائج مؤتمر عربي للإضطرابات الجنسية عقد في القاهرة على مدى ثلاثة أيام ، مفاجآت عدة. إذ شارك فيه خبراء وأطباء عرب ونظمته "الجمعية العربية لجراحي لجهاز التناسلي" ، خاضوا في كل ما يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، ولأنه حياء في العلم ؛ فإن خصوصيات هذه العلاقة طرحت على طاولة النقاش من دون مواربة أو خجل. ثم صدم كل من تابعوا الجلسة الختامية حين اكتشفوا عبر التوصيات النهائية حقيقة أن (50%) من العرب يعانون من اضطرابات جنسية (مع التحفظ على عينات البحث ومناهجه وطرق تطبيقه).

3 – الاضطرابـــــات الجنسيـــــــة والذهنيـــــة العربيـــــة

بين هذا وذاك تتقاطع كل تلك الأشياء أو بعضها مع (جنوح) للمثليـين الجنسين الفيتشيين Fetishists، أو لهؤلاء الـذين يتمنـون إذلال المـرأة وهيمنتها الجسدية والجنسية بكل قواها (F.D(Female Domination ، أو للمرأة التي تحلم بأوضاع جنسية صاخبة غير معتادة دلتها عليها فطرتهـا، أو عرفتها من بعض أحاديث صاحباتها (كذباً كانت أم صـدقاً)؟ ونمـوذج الأنثى التقليدية التي لم تعلمها أمها أي شيئ وصمت آذانها عن كل شـيئ، ففوجئت في ليلة الدخله برجل غزير شعر الصدر، كبيـر العـضو يقـف عارياً أمامها عايز حقه، شعرت بأنه سيفترسها، قاومته مما أدي إلى تهتك ونزيف في المنطقة التناسلية والبطن، إجراء عملية جراحية للتصحيح، أكد كل هذا لديها على مفهوم أن (الرجل بـشع ومـؤذي) ... أحـست بـأن الموضوع كله قذر، اعتداء ونزيف يجب تجنبه بأي شكل وبأي ثمـن وإن أدي الأمر إلى الطلاق. سلوك الاضطراب الجنسي قد يظهر أحيانـاً فـي البيئة العربية في هؤلاء الرجال اللذين يعانون من (شذوذ كـامن Latent homosexuality)، فلا يرغبون نساءهم ولا يأتونهن إلاّ بعد تنبيه الرغبـة لديهن من خلال رجال آخرين يعجبن بهن، ولا مانع أن بزغت الشهوة من أعين هؤلاء الغرباء، وإن استحال الأمر لقسوته دينياً واجتماعياً، فلا مانع من استعارة مشاهد تؤدي إلى هذا المعني وتعمقه عبر نـوادي الانترنـت الفجة والكثيفة.

وهكذا يمتد الأمر أيضاً إلى أمور أخري (طبيعية) في (الخليج)، كتعدد الزوجات، وشبه استحالتها أو تجريمها قانوناً في (تونس) مثلاً، إلى تقبلهـا رغم تدني الحالة المعيشية في (مصر)،أو القيام بها مـن بـاب الوجاهـة والمتعة فمثلا (زوجة في المهندسين وواحدة في مدينـة نـصر، والثالثـة اسكندرانية والأخيرة شابة لم تتعد الـ 18 سنة) ، يحدث ذلك لدى رجـال الأعمال خاصة الجدد منهم، أو محدثي النعمة (النوفو ريتش Novo Rich)، أو تلك التي ضاق بها الحال أو مر عليها العمر فاضطرت إلى أن تكـون (زوجة ثانية)، غالباً ما تكون في السر، وأحياناً ما يحكم عليها بعدم الخلفة، أو يتفق معها أو مع أهلها على ذلك مسبقاً، مما يؤدي لاحقاً إلى حالة مـن الاكتئاب الخانق يصل إلى حده الجسيم يستدعي له علاجاً طبياً نفسياً يجمع ما بين العقار النفسي والحوار المعرفي.

من الناحية الإكلينيكية نجد أن (القذف السريع) كظاهرة (كونية) ، ليس مجرد عرض جنسي للتوتر ينتشر أكثر في البيئة العربية، ويكـاد تكـون القاسم المشترك الأعظم للحالات السابق ذكرها وغيرها.

1.3 - دراســـــة لحالـــــة مميـــــزة (جامعـــــة شاملـــــة)

تضمن دراستنا هذه حالة مهمة جامعة شاملة ، تكاد تجـسد المفهـوم النفسي الجنسي الثقافي الشعبي الحضاري للذهنية العربية للعلاقة العـصية عن الفهم (كثيراً) في الزيجات العربية.

"إحنـا متجوزيـن من حوالي ستة أشهر، لا تمكنني زوجتي من الدخول إليـها، تمنع الإيلاج منعاً تاماً، تتألم ويصيبها تشنج عضلي في الفخدين وفي عضلات الحوض، يعني عندها (Vaginismus)" ومن خلال الجلسات الاستكشافية الأولى تبين أن الزوج صاحب الخبرة الجنسية العالية جداً (حسب قوله) والذي خاض تجربة المخدرات حتى آخر مدي يمكن تصوره ، الفحل الجنسي المشهود له كان متعباً جداً ليلة الدخلة، مجهـداً، مـصاباً بالتهاب في الجهاز التنفسي، أدى إلى تناولة مضاداً حيوياً، فلم يـتمكن مـن الدخول بزوجته لتعبه وإنهاكه (وهي التي كانت لم تزل عذراء على الـرغم من سفرها إلى معظم بلدان العالم الغربي واحتكاكها بالثقافات المنفتحة جنسياً (بالطبع هنا نحن لا نقصد من سرد تاريخ الزوج الجنسي، أن نتهكم من فشله في البدايات) ، لكننا نرصد وبدقة نشير إلى أن هناك بوناً شاسعاً بين ماضيه المتفجر بالتجارب الناجحة إيلاجاً وتحقيقاً للذات الجنـسية (خـارج إطـار الزواج) وفشله الذريع داخل عقر المؤسسة الزوجية. اتضح فيما بعـد (مـن الزوجة) أنه يفقد انتصابه لدي الاقتراب منها، وعلى الرغم من أنها بالفعـل كانت تعاني من حالة التشنج المهبلي Vaginismus، إلاّ أن اضطرابها هـذا تقوى بفعل (فشله)، وأصبح سداً يصد أية محاولات. استدعي ذلك فيما بعـد علاجه بمفرده بعد علاج الزوجة لوحدها، وكذلك علاج الـزوجين جنـسياً ونفسياً سويا ، أعتمد المؤلف (المعالج) في ذلك على طرق الكشف، الفـضح، المواجهة، التفسير، التأويل، الدخول الى عمق الحيـل النفـسية الدفاعيـة، فضحها، فض أختامها ومسح الغبار عن كل مكونات الأنـا فـي لوعتهـا، تشوشها، حيرتها وغرقها في لجة البحث والعجز) .

كان الزوجان (مع بعضهم!) يمثلان حالة باثولوجية (مرضية) مركبـة للغاية، لكنها في نفس الوقت تكاد تفسر الواقع العربـي، بكـل إسـقاطاته الجنسية المحبطة والفاشلة، بل والمقاومة للعلاج بكل أساليبه.

كان الزوج طاووساً مفتوناً بعقله، استسلم فجأة للمعالج والعلاج (مزعم أخاك لا بطل)، أعطي عقار الـصدق Pentothal لتيـسير عمليـة البـوح والفضفضة، كانت أمه مغلوبه وكان أبوه شديداً، بدد المال والأحوال ولنضم إليه أخوه في الأعمال (البيزينس) الخاص بهما، بقي الزوج مع أمه وسـافر إلى أبيه لينهي طلاقه من أمه (ليحررها سجنه وسيطرته وعذابـه – حـسب تعبير الزوج الابن الذي كان يشبه أبيه إلى حد بعيد، وبالتحديد شـكل أنفـه، مما استدعاه الى التفكير في تغييرها جراحياً، لكن الأخطر من ذلك لم يكـن الشكل، وإنما استدماج INTROJECTION الأب داخله، تحديـدا اسـتدماج ضعفه الشخصي ووهنه الإنساني الظاهر شدة وصرامة ، غطـاه مريـضنا بالمبالغة، التهويل الإدعاء،التكبر، الاستعلاء، شـحذ كـل دفاعاتـه دون أن يدري في مواجهة العلاج على الرغم من أنه لم يسع إلاّ للشفاء (تخلصا من الأزمة) وكانت العملية النفسية الدفاعية عبارة عن (تكوين عكسي).

كانت في تاريخ الزوج العاطفي بنت غربية أسلمت وسلمت له نفسها، فلم يعاشرها زوجياً فحسب، لكنه أيضاً أغرقها في لجة المخدرات، ولأنها كانت تملك براءة غير عادية فلقد أحس بالذنب الشديد، سافر الى أهلها في الشمال طالباً الصفح والمغفرة من شيخ (الطريقة)، لكـن ثمـة إحـساس متضخم بالذنب كامن ككرة اللهب في جوفه دائما وخاصة عند التطرق إلي موضوعها، أو عندما تكون هناك سيرة لامرأة ربما أحبها، (وهـو رغـم إدعاءاته الكثيرة لا يعرف كيف يحب لأن أنانيته المفرطة وعشقة العجيب لذاته جعله متورماً يغشي البصر عن أي حقائق قد تنجلي أمامه) ... هنـا كان بالفعل يشبه أبيه، البنت التي أفسدها، أو كما يقول المصريون (شتمها في شارع وصالحها في حارة): حولها من فتاة بريئة الى مـسخ مـدمن، مهتّك احتاج إلى كثير من الوقت لكي يتعافي، يتأهل وينهض من عثرتـه، رغم (السيكوباثية) التي لا تظهر على هذا الرجل مباشرة، إلاّ أنها كانـت في صلب تكوينه ومعاملاته، ومع ذلك - وخلافاً لما هو متعـارف عليـه علمياً - فإن إحساسه بالذنب ذلك، كون نواة لفشلة الزوجي أو بـالأحرى الجنسي، وكأنها لعنة الإفساد ظلت تطارده (على الأقـل علـى المـستوى اللاشعوري، الذى ظهر في صورة عجـز جنـسي، فقـدان الانتـصاب ،وسرعة القذف) وحسب نظرية الأعضاء الضعيفة لألكسندر، فلقد اختارت الموبقات في حياته نقطة ضعفه، ضربت في وظائف أعـضائه التناسـلية (فكانت كعب أخيل الذى رماه أعداؤه بسهم قتله على الفور ، وهو البطل

صاحب الجسد المحصن ككل)، هي نفسها النظرية النفسجسدية The Psychosomatic Theory، بمعني أن الجسد ممثلا في (الوظيفة الجنسية) اختلّ وتعطل، وفي نفس الحين (تشريحياً) هذه الأعضاء سليمة ، بل أن صاحبنا ما فتىء يجربها مع (بائعات هوي ونجح معهن بشكل ميكانيكي جسدي كامل بحت ، مثل الحيوانات عندما تمارس الجنس بالضبط)، مما يدلّ على أن (اضطراب الانتصاب وسرعة القذف ، مرتبطان فقط بزوجته).

نركز هنا على تناقض آخر في علاقة هذا الرجل بنفسه، تدينه العميق (شكلاً) فنجده في حلقات ذكر (يتمايل مع آخرين لساعات)،يواظب على جلسات الدين (المودرن) إن صح التعبير، تلك التي تجمع الرجال مثله من ذوي الأعمال المتعددي الجنسيات، في صالات مكيفه وروائح باريسية، بخور عمانية (دنيا تانية تمارس فيها الشعائر الدينية)، بحثاً عن الراحة والخلاص، أو عن توحد مع آخر مثله (للكاتب هنا تجربة حضور جلسات، حلقات، ومحاضرات دينية أقامها رجل أعمال شهير أفلس ويعيش على سمعة ثرائه السابقة، يدعو إليها إمام مسجد وخطيب مفوه بملابس إفرنجية كاملة ورابطة العنق لامعة، ولا بأس من عشاء يشمر فيه الكل ساعده ليهبره من اللحوم ومن كل ما لذ وطاب، أو يحتسي الجعة من غير كحول، والبعض يغرفون الأرز بأيديهم تيمناً العادات الخليجية)، ثم يذهبون فرادى وجماعات إلى تلك الصالة الرحبة الخافتة الضوء ، يكملون المأدبة بالحلويات الشرقية المتنوعة، يمسحون أنوفهم وأفواههم بالمناديل الورقية المعطرة، ولا بأس من بعض (التمر).

في خلال ذلك وبعده تستمر البسمله و التسبيح ، ربما بتحريك حركة الشفاه فقط، مع افراط في حركة اليد والأنامل بحبات السبحة.

كان سؤال الكاتب للخطيب الواعظ وهو يلتهم آخر قطعة لحم (ملبسة) كاد أن يختنق بها: (إلاّ تفتكر يا شيخ إن الاكتئاب ضعف إيمان، تأنيّ الشيخ في الرد، ربما لأنه كان يحاول معرفة كنُه العلاقة بين ذلك الطبيب النفسي ضيف الشرف (الذي دعاه صاحب المال والمكان والزمان)..." رد رداً مقتضباً يمكنّه من إدراك الأمور، المهم أنه وافق على مضض على أن الاكتئاب مرض نفسي، يتسبب فيه اضطراب كيمياء المخ العصبية ، لم يكن هذا هو مقصدي من ذكر تلك التجربة، لكن القصد كان إيضاح نوعية مرتادي تلك الجلسات، فلقد كانوا رجال أعمال محترفون على كل شكل ولون، أغلبهم سقط وهوى، أفلس ثم نهض، أو بلغة سوق المال (سوى أوضاعه)، أو انكسر ولم يكشف بعد، تُبقية مع البعض هالة وصورة وبعض الأصول المادية (غالباً عقارات أو سيارات أو بقايا مصانع)... كان صاحبنا (الزوج) من مرتادي مثل تلك الجلسات، يخفي فيها ألمه وذنبه، حيرته ولوعته وبحثه المر عن الحقيقة، توتره الإنساني، الجسدي، الزوجي، الجنسي، الحاجة الماسة إلى (الشفاء)، (الآن) وبأي ثمن (لغة السوق مرة أخري). لكن المسألة كانت أبعد بكثير من ذلك، بشقيها النفسي والجنسي لدي كل من الزوجين.

كشفت جلسات التحليل النفسي للزوجة، عن حبها الأول والوحيد كان يبلغ من العمر 18 سنة وكانت وقتها هي 17 سنة، كان عشقاً لدرجة الهوس، لم يشأ أن يأخذ بكارتها دون أن يتزوجها، ولم يشأ أن يتزوجها (لأنه لم يزل صغيراً، وعايز يتفرج على الدنيا ويعرف بنات وستات، ويخوض كل التجارب ثم يقرر – منطق؟!)، وهي لا يمكنها الانتظار بعد أن يخلص دورته ليعود أو لا يعود، كانت حتى لحظة الزواج تتذكره، لكنها تعاملت مع الأمر (بعقلها)، رأت في زوجها (إنساناً) لطيف المعشر، يحبها، وتحمل له مشاعر تؤهل للزواج، لكن تلك المشاعر لا يمكنها أن ترقى إلى حالة الحب أو العشق، إطلاقاً) لهذا ، فعند أول (فشل) بعد الدخلة وما تلاها، (بعد أن تخلص الزوج من توتر واجهاد الفرح)، لم تتمكن من قبول الأعذار، وأدركت على الفور ، أنه ليس رجلها،رغم إصراره على المحاولة والاستمرار،واستمرارها في التشنج وإغلاق الفخذين والألم المبرح عند تحريك أي من عضلات الحوض، بل إنها بدأت تفقد احترامها له، تنفر منه، ولا تسمح له بتقبيلها في فمها إطلاقاً، لكنها إنسانياً، (ربما كالأصدقاء، كانت ترحب به، وأحياناً كانت تستقبله بالأحضان كرفيق، وزاد من ضيقها جداً في فترة ما بعد الزواج مكوثه في البيت لعدم بدئه أي عمل جديد).

بدأ الزوج جلسات نفسية تحليلية مكثفة أستخدم فيها المعالج (المؤلف) (مصل الحقيقة Serum Truth) وهو إما عقار البنتوثال Barbiturates (المخدر)، أو أي من قمجموعة المهدئاتBenzodiazepines فيما يصطلح عليه بالـ ABREACTION، أو جلسات التفريغ النفسي التى كانت تصل مدتها إلى (ساعتين مستمرتين أحياناً)، كشفت عن تناقض وجداني شديد تجاه الأبambivalence ، وحالة من السخط والرفض لسطوته وعبثه وقهره لأمه الجميلة، لكن ذلك الشعور لم يكن كرهاً، كان مزجا معذبا بين الحب والرفض Love Hate، تمنى (الزوج) أن تكون أمه قوية (مهيمنة) لا صلبة (مقاومة)، وهكذا تمني امرأته كما سيتضح فيما بعد.

كشفت جلسات (التفريغ) النفسي أيضاً عن شذوذ كامن Latent Homosexuality كان الزوج – عادة – لا يتذكر ما قاله من تلك الأمور؛ فأصبحت ذاكرته بعد الجلسات اختيارية elective وكان النسيان Post Hypnotic Amnesia مخصصاً فقط للأمور المخجلة والكامنة جداً في العمق.اضطر الزوج (كما يدعي) لأن يذهب الى أحد تلك الأمكنة التى توفر التدليكmassage ، من قبل نسوة (غالباً عاهرات)، كانت فيها إحداهن تقوم بمداعبته وممارسة الجنس الفمي Oral Sex معه وتدليك قضيبه بيدها حتي يقذف، (ممارسة العادة السرية عن طريق الآخر المؤجر)، قال أنه جد سعيد بالتجربة وطلب من (القواد) في عاب الليل تلك، أن يأتي له بامرأة (جامدة)، قصد الزوج هنا أن تكون (حلوة طاغية الأنوثة)، بينما فهم القواد أو علّه استشعر (بخبرته في المجال الجنسي التجاري مع كافة أنواع المرتادين من الرجال) ان هذا الرجل يريد امرأة (جامدة) بمعني (مهيمنة Female Dominant)، تسيطر عليه جنسياً وتُذله، أحضر له امرأة قوية النفس والجسد ، دخلت عليه وذلّته، عاملته كخادم، طلبت منه أن يحمل عنها فنجال القهوة الصغير جداً لأنه يتعبها في حمله، وأن يظل واقفاً بجوارها حتي تأخذ منه رشفة رشفة، ثم بعد انتهائها منه أمرته أن يضعه بعيداً .... فعل كل ذلك، ثم بدأت المرأة طقوساً معروفة في هذا المجال حيث شدته من شعره وعنفته، كانت في منتهي القسوة مما أثاره جنسياً بشدة، ومما أدي أيضاً إلى انتصابه بقوة بالغة، ولدى عملية القذف دون (إيلاج) (لأن ذلك أمر غير مسموح به في مثل تلك النشاطات التدليكية الترفيهية كما هو الحال في الغرب تماماً)، كان صاحبنا مستمتعاً إلى أقصي الحدود، منتشياً للغاية، كله وهج وانتعاش واشباع. فسر له المعالج (المؤلف) أن ذلك يلخص بما لا يدع مجالاً للشك أن ميوله الجنسية، هي تلك للهيمنة الأنثوية الجنسية، وأن الأمر ليس كذلك مع أمرأته التى بدورها كانت تريد رجلاً مهيمناً قوياً نفسياً وجنسياً.

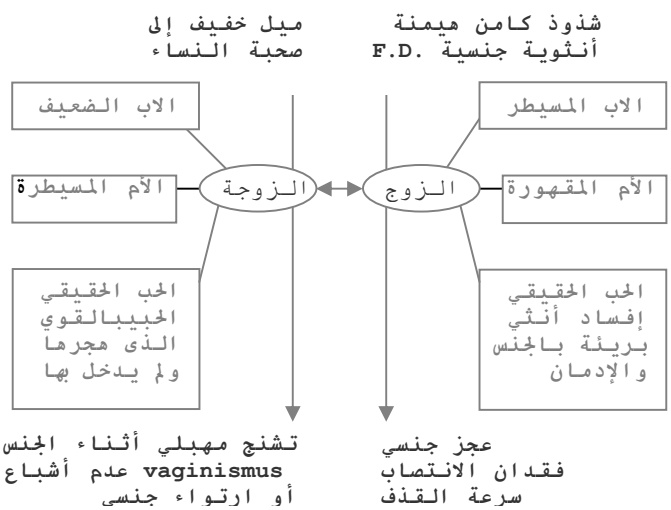

* شكل يوضح العلاقة المتوترة بين الزوجين بكافة أبعادها وديناميكيتها الجنسية والحياتية

إذن فنحن أمام حالة زوجية مركبة، كل مـن الـزوجين معتّـل نفـسياً وجنسياً، وبالتالي فأن الزواج نفسه أصبح مختلاً معتلاً ومـضطرباً للغايـة، تنخره صراعات وتناقضات ، تبادل للأدوار ما بـين الجـاني والـضحية، المذنب و البريئ، كانت الزوجة أحياناً تتلذذ بمشاكسته جنـسياً فـيظن أنهـا تريده، فيأتيها بقوة ثم يفقد انتصابة فلا يولج عضوه فيصاب بالإحباط والفشل والقنوط، أما الزوجة فتيأس وتبكي، كان كثيراً مـا يلجـأ إلـى المنـشطات المتداولة مثل الـ Cialis والفياجرا، لكن المسألة كانـت محـض انتـصاب صناعي وقذف سريع، لا مشاعر ولا عاطفة، لا حب ولا زواج هي ترقـد كأنثي معطلة، ينام هو بجوارها ذكر (غير قادر) هي تتمنى رجلاً لا يكـون مثل أبيها، وهو يريد أنثي غير أمه (أنثي مهيمنة) تشده وتضربه.

لجأت إلى صحبة النساء بغيـة الاقتـراب مـنهن، (خاصـة أولئـك السحاقيات Lesbians) دون أن تكون لها ميول جنسية مثلية، ربما لأنهـا (قرفت) من الرجال، وودت لو تدفأت ببنات جنسها، دون تهديد ذكوري أو محاولات إيلاج فاشلة يصحبها قذف سريع.

وهكذا كان كل طرف يرسل للآخر رسائل مضللة، وإشارات مختلفـة تُفهم على عكس مضمونها، مما أدى إلـى تـشوش ولخبطـة وفوضـى Confusion، كان الحبيب الأول منافساً بل مصارعاً بكل جبروت للزوج، بكل العشق والوله، وكما كانت تردد الزوجة دائماً (بكل الـ Passion)، غالباً أنه كان رجلها الذى تركها (كما ذكرنا سالفا، الفارس النبيل، قـيس الهائم)،وكما يضحك العوام من مثل تلك المواقف ملخصين الأمر الجنـسي بين الزوجين حيث كان الذكور منهم والإناث يتبادلون رسالة قصيرة على تليفوناتهم المحمولة تقول (قال عنتر بن شداد : "لقد ذكرتك والرماح نواهل مني، وبيض الهند تقطر من دمي، قوددت تَقْبيل الـسيوفَ لأنهـا لمعـت كبارق ثغرك المبتسم" فقالت عبلة: "والنبي يا عنتر مارس الجـنس صـح وادخل بي وانت ساكت") أو علّها تمنت الرجل الكارتوني الوسيم، الرجـل المفترض Virtual، الموجود دائماً كذكرى غير محققة، خيال جـامح لـم تكتمل فصوله، عالم أرجواني زاهي مضي عن عالمها فـي غفلـة عـين واختفى للأبد ، (وربما إذا ظهر، فلن يكون ذلك الذي تمنته)، لكنـه ظـلّ حاضراً بكل قوة في كل ذرة من كيانها،في حين لم يستطيع الزوج طـرد شبحه أو إبعاد لقوة تلك الذكرى،فظلتّ صلبة كالفولاذ تصد كل محـاولات اختراق الزوج الفاشلة، بل ذكرى تتمكن منها ومنه ولا تسمح للزوج بـأن يتقوى، بل عززت ضعفه وفشله على المستوي الجنسي البحـت، وعلـى مستوي مشاعر الحب العنيفة التى أحست بها تجاه (الحبيب الأول)، تلـك التي كتمتها ولم تستطع أن تحولها (فمثل تلك الأشياء لا تنقل ولا تـستعار ولا تُبدل من رجل إلى رجل).

2.3 - تفسيـــــر وتحليـــــل للحالـــــة

نلحظ أن ثمة أسباب مباشرة أعقبت الزواج في تلك الحالـة اعتمـدت على فلسفة اللحظة، على مبدأ(هنا والآن)، تلك المسببات كانت كافية لتدمير الاستجابة الجنسية لدي الطرفين في نفس اللحظة التي كان فيها الزوجـان يديان الالتحام داخل السلوك الجنسي.

علماً بأن هذا السلوك يتكون من سلسلة مركبة من الاستجابات الذاتيـة العضوية، التي لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلاّ أذا كان الشخص هادئـاً، مستقراً ومطمئناً، وشريطة أن تُترك العملية لتلقائيتها، عفويتها، وانسيابها، بمعني ألاّ تعطلها وألاّ تعوقها أية عملية أخرى كالمراقبة أو الرصد علـى مستوي العقل الواعي، بمعني أدق أن تُترك لكي تأخـذ فرصـتها للتمتـع بجنس رائع وطبيعي، أي أن يترك الزوجان نفسهما تماماً للنشوة والشهوة والعشق الجسدي، للذة بكل أبعادها (دون أدنى تفكير في أي شيئ آخـر)، أي أن (يسلم) كل منهما مفاتيحه، فلا يتحكم أحدهما فـي أي شـيئ، وأن (ينفصل) إلى حد ما عما حوله.

يأتي العطل الجنسي (كما في هذه الحالة) ، من بيئة معادية للجنس، وتاريخ قاسٍ يطلّ بوجهه من ثنايا الذاكرة . تكمن هنا أهمية أن يكون الزوجان حران من العقد، ومن الذكريات السابقة والتجارب الماضية، وكأنهما سيولدان من جديد، كأنهما آدم وحواء.

ولنا في هذه الحالة ثلاث تفسيرات ورؤى :

1. **ديناميكـــــي فرويـــــدى** ، يعتمد على المسألة الأوديبية في ارتباط الزوج بأمه(أوديب)، وارتباط الزوجة بابيها (إلكترا) ويتضمن ذلك عمليتي الوعي واللا وعي.
2. **تعليمـــــي** ، بمعني أن الخوف من الفشل، يولـد الفـشل ، والفشل المتكرر يزيد من الطين بلّه، يغلق السكك ويـسد الفـرص، مؤديا إلى الإحباط واليأس بل وعدم القدرة علـى الأمـل فـي أي علاج.
3. **نفســـــي جســـــدي Psychosomatic** حـسب نظريـة "الأعضاء الضعيفة" لألكسندر(التي ذكرناها سابقا) أي أن هـشاشة أحد الزوجين أو كل منهما، تضرب فـي عمـق الجهـاز النفـسي الجنسي، فتعطل مراكز المخ تغلق الفخذين محدثةً الألم عند الجماع لدى المرأة Vaginismus، ومرسلة إشاراتها المُعطّلة إلى الدم فـلا يتدفق في القضيب، فيفقد أنتصابه أو لا ينتصب إطلاقاً وإذا لجأ أحد الزوجين إلى العقاقير، يتحول الفعل إلى شكل غريب، أجدب، عديم الطعم والرائحة، وكما تقول بطلة فـيلم (دنيـا لجوسـلين صـعب) صارخة في وجه الجدة التى قامت بختان حفيدتها خوفاً عليها مـن الغواية الجنسية بعد البلوغ، (إنتي طفيتيها .. بقت زى الطبيخ البارد مهما اتحطّ على النار الوالعة، زي الأكل العادم مهما كانـت كميـة الملح فيه).أي جنس بلا معني، بلا حب، بلا حميمية، بلا روح، بلا عِشْق، مجرد أداء حيواني كثيراً ما يكون مقززاً.

4 - التشنـــــج المهبلـــــي ومنـــــع الإيـــــلاج Vaginismus

- كل شيئ في تشريح المرأة طبيعي لكن عندما يحـاول الرجـل اختراقها بذكره المنتصب، تتشنج عضلات الحوض والمهبـل جـداً ، بحيث يصبح الإيلاج مستحيلاً، وكذلك عند الفحـص المهبلـي (علـى الرغم من أن بعض السيدات يكن طبيعيات مع طبيب النـساء خـلال فحصه لهن ، أو ادخاله موسعات Dilatators في حين تظـل المـشكلة قائمة مع الزوج) .
- يحدث نتيجة تشنج لا إرادي في العضلات المحيطة بفتحة تناسل المرأة، خاصة تلك المحيطة بالمهبل، والتى بين المهبل وفتحة الـشرج (أي منطقة الحوض بصفة عامة) .
- بالإضافة إلى التشنج الأولي داخل المهبل، فإن الزوجة غالباً ما تعاني من خوف مرضي (فوبيا) من الجماع والإيلاج، هـذا التجنـب الخائف المرضي يجعل كل محاولات الجنس الزوجية مستحيلة ، مؤدياً إلى الإحباط والألم النفسي والجسدي. مما يتسبب في رد فعل ثـانوي (فوبيا)، للجنس عامة تسبق عملية التشنج Vaginismus.
- قد يكون مرتبطاً بحالة عامة من (الانغلاق) الجنـسي النفـسي للرعشة والنشوة : Orgasmic Inhibition ممل يمنع الوصـول إلـى المتعة الكاملة بالعلاج أو بدونه تستجيب كثير من النسوة جنـسياً وقـد يصلن للنشوة Orgasm بمداعبة البظر، كمـا ويـستمتعن بالاتـصال الجسدى والملاطفة (أحضان وقبلات ، لمس وضغط وكافة الممارسات مع الوجه، الفم، النهدين) لكن دون إيلاج (أي دون أن يـدخل العـضو إلى داخلهن).
- يجب تفريق الحالة عما سواها من تجنب للجنس (خوف مرضي Phobia)، كما يجب استبعاد أي حالة عضوية قد تتسبب في هذا.

1.4 - ردود الفعل لحالة التشنج المهبلي
Reaction to Vaginismus

- يكون فيها الجماع بالإيلاج الكامل مستحيلا.
- لا يمكن للزوج تقبل الوضع تحت أي ظرف خاصة العربـي، فهـو لا يفهم ولا يحاول أن يستوعب أنها حالة مرضية نفسية جنسية (لا هو ولا أهله، بالتحديد أمه، ويعتقد الجميع أن البنت بتتدلع وأحسن لها الطلاق).
- يكون الأثر النفسي على الزوجين سيئا للغاية.
- تكون المرأة المركز والمحور ومحطة التركيز ويكون عليها المسئولية (على الرغم من أنها قد تخاف من احتمال الشفاء).
- على الرغم من المرأة تغلق نفسها تماماً (بالضبة والمفتاح) ، إلاّ أنهـا تكون خائفة، ذليلة، محبطة مع كل محاولة. كما أن كثـرة محـاولات الجنس الفاشلة تؤدي إلى مشاعر عدم السواء (خاصـة فـي النـساء الصغيرات السن).
- كل محاولات الاختراق ، تؤدي إلى توتر شديد، ضيق وغضب ، مما قد يؤدي إلى حالة (خطرة) من العنف عند الزوج.
- رد فعل الرجل للحالة يختلف من حالة إلـى حالـة ، حـسب بيئتـه المحيطة، ثقافته العامة والخاصة، خبرته الجنسية قبل الزواج، مـدى تعليمه. كما تعتمد على درجة تحمله النفسي والجنسي ، عادة ما يكون محبطاً وغالباً ما يصاب بعجز جنسي ثانوي (أي عـدم قـدرة علـى الانتصاب أو فقدان لدي محاولة الدخول إلى زوجته).

2.4 - العِلَـــــــــلْ

التشنج المهبلي Vaginismus رد فعل شرطي يحدث غالباً نتيجة (ألـم وخوف) معاً، يرتبطان بمحاولات أو (تخيل محاولات) الاختراق المهبلي.

3.4 - الأسبـــــاب عضويـــــة

أي اضطراب صحي (باثولوجي) في أعضاء منطقة الحوض، كالالتهابات، أو التليفات، الأورام، البواسير، وغيرها . في الماضي كان العلاج الطبـي العضوي أو الجراحي بإزالة الأسباب مع توسيع المهبـل جراحيـاً هـو الأمثل، لكن ثبت أن التوسيع الجراحي يتم بشكل آلي مـؤلم ولا يـصحبه تأهيل أو علاج نفسي مما يؤدي إلى عدم جدوله .

4.4 - الأسبـــــاب النفـــسيـــة (الـــصياغة التحليليـــة العميقـــة (الديناميكية)

- من المفترض رؤية الـ Vaginismus التشنج المهبلي على أنـه (هسترية تحولية) تعبير رمزي عن صراع نفسي داخلي معين ، لكـن هنا التفسير لا يرحب به الكثير من العلماء ، ويرون أن المسألة هـي صراع بين المرأة والرجل (من يخترق منْ، منْ يركب على منْ، مـنْ يقدر على الفعل ومن يتلقي) معني فلسفي يدور حول حـسد الأنثـى وحقدها على الذكر، لامتلاكه العضو المغرور الـصلب ، هـي هنـا ترغب لا شعوريا في أن (تخصي) الرجل ، بمنعه من الدخول إليها، ومن ثم يصاب بالارتخاء، فيفقد تفوقه عليها، في العـلاج العملـي لا نتبنى تلك الآراء النظرية لكن نحاول جاهدين البحث عن (حبيب سابق خان ولم يف بوعده، عن تحرش جنسي من رمز والدي في الصغر - مثلاً)، بمعني آخر أن نبحث ونحلل، ونشرح ونوضـح أي احتمـالات لرفض الرجال وبغضهم وأسباب ذلك منذ الطفولة. على المعالج إحداث حالة من (الاستبصار و الوعي) بكل ما يـدور، بـالمختبئ والكـامن والمرفوض، بالمثير للذعر و الانزعاج من الرجل بصفة عامة ومـن الزوج بصفة خاصة.

- هذا بجانب العوامل الاجتماعية النفسية الأخرى مثل (اغتـصاب، أو محاولة الاغتصاب) أحاسيس الذنب، التصورات الجنـسية الـسلبية العميقة المدفونة في أعماق الأنا .

- ونري هنا ضرورة تبني مفهوم شامل للعلاج بمعني كـشف كـل الأوراق، الأسباب، المعاني، الملابسات حتى أدق الأشـياء كالـشكل، الرائحة، طريقة الزوج، سلوكه في الفراش، الزوجة ونظرتهـا إلـى جسدها وإلى نفسها وإلى الأخريات.

وهكذا يحدث الـ Vaginismus التشنج المهبلي في ظـروف سـلبية ترتبط بالخوف المتخيل والحقيقي من إيلاج الذكر لعـضوه داخـل مهبـل الأنثى، أسبابه شتي ومتنوعة، وليس بالضرورة أن تكون كل الإناث اللاتي تعانين منه عصابيات لكن بعضهن يكون مضطرباً جـداً ، كمـا يكـون زواجهن متأرجحاً ما بين الجيد والسيئ للغاية.

مشاهـــد من على كرســـي الطبيـــب النفســـي

د. خليـــل فاضـــل

موقـــع الدكتـــور خليـــل فاضل

www.drfadel.net

الإضطـــراب الجنســـي:
الأبعـــاد النفسيـــةلدى الرجـــل والمـرأة

أ.د. خليـــل فاضـــل

شـــادي عبـــد الموجـــود..

د. خليـــل فاضـــل